الإدراك عند علماء النفس

تعريف الإدراك:

عرفه الدكتور/ فائز محمد علي الحاج. بقوله:

الإدراك: هو الإحساس بعد ترجمته إلى معنى من المعاني. أو هو العملية العقلية التي تتم بها معرفتنا للعالم الخارجي عن طريق التنبيهات الحسية.

وقد جاء في توضيحه لهذا التعريف ما يلي:

إن رؤية الشخص لشيء كروي ذو لون أصفر فيسميه بأنه برتقال، وحين يسمع صفيراً فيقول جاء القطار، وحين يشم رائحة زكية. فيقول هذه رائحة مسك.

وهذا يستدعي أن تكون له معرفة سابقة بمجموعة أخرى من الروائح ويمكنه التمييز بينها بواسطة الشم.

فهذه الحالات ليست مجرد إحساسات تأثرت بها الحواس بل هي مدركات أيضاً، فإن تعرفه على طبيعة ما نقلته العين من أثر حسي أضاف إليه بعض العناصر التي استدعاها من معرفة سابقة فتكون بذلك إدراكاً، بدليل أن الرجل البدائي حين يسمع صفيراً لا يمكنه إدراك أن الصفير الذي سمعه لشيء متحرك يسمى القطار، حيث لم

تتوفر عنده مكتسبات ماضية تخص موضوع الإحساس حتى يترجمه إلى معنى من المعاني.

فالإدراك إذن لا يقتصر على إحساسات حاضرة، وإنما يستعين بخبرات الماضي أيضاً أي أن الإدراك يتألف من إحساسات حاضرة ومن عناصر نفسية ماضية[1].

«يتأثر إدراك الفرد بنموه العضوي والفسيولوجي والعقلي والإنفعالي والإجتماعي ولهذا يختلف إدراك المراهق عن إدراك الطفل لتفاوت مظاهر نموهما وتدل أبحاث (اسكالونا S. Escalana) على أن الحساسية الإدراكية في عتباتها العليا والدنيا تتأثر بالمجال الذي يهيمن على الفرد وبالموقف المحيط به، أي أن هذه الحساسية تخضع لمدى تفاعل الفرد مع مقومات هذا الموقف ومستوى إدراكه له. هذا ويختلف إدراك الطفل عن إدراك المراهق اختلافاً ينمو بالفرد نحو التطور الذي يرقى به من المستوى الحساس المباشر إلى المستوى المعنوي البعيد.

وتدل دراسات (كيمنز C. W. Kimmins) وغيره من الباحثين على أن إدراك الطفل للحروب يتلخص في الآثار المباشرة للغارات الجوية وما يراه فيها من تخريب مباشر، وأن إدراك المراهق يستطرد ليرى في هذه الغارات الجوية نذير خراب مقبل يهدد حياة الناس ما دامت الحرب قائمة. أي أن إدراك المراهق يمتد عقلياً نحو المستقبل القريب والبعيد بينما يتمركز إدراك الطفل ـ إلى حد كبير ـ في حاضره الراهن»[2].

---

(١) نقل بتصرف يسير: بحوث في علم النفس العام (صـ ٦١) د/ محمد فائز محمد علي الحاج المكتب الإسلامي.

(٢) الأسس النفسية للنمو (صـ ٢٨٤) د/ فؤاد البهي السيد ـ دار الفكر العربي

«أما المراهق فبتأثير النمو العقلي الذي يبلغه، وبتأثير الآفاق الجديدة التي اكتشفها وعرفها، يستطيع أن يدرك الأمور المجردة المعنوية.

وتدل الدراسات العلمية على أن إدراك الطفل للحروب يدور حول الآثار المباشرة للغارات الجوية وما يراه فيها من تخريب مباشر، بينما يتطور إدراك المراهق ليرى في هذه الغارات نذير خراب مقبل يهدد حياة الناس ما دامت الحرب قائمة.

وبمعنى آخر فإن إدراك المراهق يتخذ آفاقاً واسعة من الماضي والحاضر والمستقبل ويحاول أن يتعمق في إدراكه ليدرك الأسباب المباشرة والأسباب غير المباشرة والنتائج القريبة والنتائج البعيدة.. بينما لا يتعدى نطاق إدراك الطفل الزمن الحاضر الذي يعيشه»[1].

إن المراهق المسلم يستطيع أن يدرك الكثير من الأسباب السياسية والإستعمارية والدوافع النفسية الظاهرة والخافية لحروب العصر الحديث، ويواصل إدراكه فتبدو له بعض أهداف هذه الحروب، فيدرك أنها ترمي إلى بث الرعب والفزع في النفس لقتل روح المقاومة، والتسليم بالعجز عن مجاراة المستعمرين الذين يهدفون إلى بسط النفوذ وتسلط الطغاة، كما يهدفون إلى نشر الفساد وسيادة الظلم والبغي وسلب الثروات، وانتهاك الحرمات ونشر الإلحاد والضلالات وفرض عبادة الطواغيت بقوة السلاح وتحت تهديده، وأنهم يستبيحون كل حيلة ووسيلة تحقق لهم أهدافهم الخبيثة.

ويستطيع المراهق المسلم مواصلة إدراكه فتبدو له بعض نتائج هذه الحروب على مستقبل الإنسانية، وعلى مدى تمتع الفرد بحريته

---

(١) خفايا المراهقة (صـ ٥٤) تأليف معروف مصطفى زريق ـ المطبعة العمومية بدمشق.

الشخصية وحقوقه الضرورية.

إن المراهق المسلم إذا ما قرأ القرآن الكريم فإنه يستطيع إدراك الفوارق بين الحرب الحديثة والحرب في الإسلام، وأن يدرك الآداب السامية التي كتبها الله على المؤمنين في حربهم مع الكافرين، فالخراب والدمار الذي يحدث من جراء الحرب في العصر الحديث، وتعريض النساء والشيوخ والأطفال والعجزة إلى القتل الجماعي والإبادة الشاملة وتعرض من ينجو من بين ركام الدمار والخراب إلى الإصابات الأليمة وإلى التشوه والأمراض التي لا يرجى برؤها إلا أن يشاء الله.

وتحضرني كلمات قالها أحد المراهقين تعليقاً على صورة وهو يطالعها في إحدى الصحف، وكانت الصورة تضم مجموعة من أحدث الطائرات المقاتلة والقاذفة وقد وضع على جانبيها صورة لجمجمة وعظمتين متقاطعتين فقال: إن صانعي هذه الطائرات يريدون أن يفهمونا بأنهم يملكون الكثير من أسلحة الهدم والدمار لقتل روح المقاومة فينا حتى نرضى بالواقع الذي يفرضوه علينا وأن يفهمونا بأن أي تقدم نحرزه في ميدان التسلح مسبوق بمثله مئات المرات، ويتنهد ثم يقول المسلمون هم السبب في كل ما نسمع وما نرى، فكل ما أصابهم من الضعف والهوان ضعف إيمانهم ومخالفتهم لأوامر دينهم، ورغم كل ما نرى فإني أتوقع أن تكون الجولة القادمة للإسلام، فالإنتصارات الدائمة التي يحققها المسلمون في أفغانستان تزيد في اطمئناني.

ويدرك المراهق المسلم سمو الجهاد في الإسلام عن الحرب الإستعمارية الحديثة رغم اتحادهما في بعض المظاهر، فالجهاد في الإسلام يهدف إلى إتاحة الفرصة لجميع الشعوب أن تعبد الله مخلصة له الدين، كما أنها لا تقر إجبار أي إنسان على ترك دينه والدخول في

الإسلام، إلا أن يكون دخوله في الإسلام عن رضا واقتناع واطمئنان فالإسلام لا يهتم بالظاهر اهتمامه بما استكن في الضمائر والقلوب، كما أن الحرب في الإسلام لا تهدف إلى بسط السلطة والنفوذ السياسي بل تهدف إلى رفع القيود والضغوط التي لا تناسب فطرة الإنسان، كما يدرك سمو الحرب في الإسلام التي لا تقبل التخريب والدمار والقتل الجماعي للنساء والأطفال والشيوخ والعجزة الذين لا حيلة لهم، وكلما طالع المراهق سنة رسول الله ﷺ عن الجهاد وآدابه في الإسلام إزدادت إدراكاته عن فضائله.

روى الإمام مسلم بسنده المتصل عن سليمان بن بريدة، عن أبيه. قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً. ثم قال: «اغزوا بسم الله. في سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله. إغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً.

وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال). فأيتهن ما أجابوك فأقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى الإسلام. فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين. وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين. يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين... الخ الحديث»[1].

وروى الإمام البخاري بسنده عن نافع أن عبد الله رضي الله عنه أخبره «أن امرأة وُجِدت في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولة،

---

(١) صحيح الإمام مسلم كتاب الجهاد والسير ـ باب تأمير الإمام الأمراء ووصيته إياهم بآداب الغزو.

فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان»[٢].

وقد تناول الدكتور/ أحمد زكي صالح موضوع الإدراك، فبين أنه وسيلة الإنسان للإتصال ببيئته والتعرف عليها، كما بين أن حدوث عملية الإدراك تقوم على شرطين فقال:

«الإدراك هو الوسيلة التي يتصل بها الإنسان مع بيئته فهو لا يستطيع أن يأكل إلا إذا أدرك بطريقة ما أن ثمة ما يؤكل موجود في بيئته، ولا يستطيع أن يحافظ على حياته وأن يستمر في الوجود إلا إذا أدرك وجود الأخطار التي تهدد حياته من عدم وجودها، ولا يستطيع أن يعيش مطمئناً إلا إذا استطاع أن يعرف إخوانه الأوفياء من أصحاب السوء الماكرين الذين يضمرون له السوء...

والإنسان كغيره من الكائنات الحية يولد مزوداً بقوى فطرية هائلة لتحقيق عملية الإدراك، ولا يتعلم الكائن الحي كيف يستخدم هذه القوى الهائلة، قبل أن يستخدمها مباشرة، غير أن استعماله ينمو ويتهذب بحكم اتصاله المتكرر بالعالم الخارجي، ويستعمل الكائن الحي هذه القوى في المحافظة على بقائه، وفي تنفيذ أغراضه الدنيا والعليا في الحياة.

شروط عملية الإدراك:

يمتلىء عالمنا الخارجي بالعديد من الأشياء والموضوعات التي نبصرها ونسمعها ونلمسها ونشم رائحتها، وغير ذلك، وتدرك الذات البشرية هذه الأشياء وهذه الموضوعات على أنها ذات وجود مستقل، وأن لها خصائص معينة تقوم وجودها ونحن نلاحظ أن الموضوع الموجود في العالم الخارجي يظل ثابتاً ما لم يطرأ عليه ما يغير منه،

---

(١) صحيح الإمام البخاري كتاب الجهاد باب قتل الصبيان في الحرب.

وهنا يظهر لنا أن عملية الإدراك لا تتم إلا بوجود شرطين.

أولاً: وجود العالم الخارجي المملؤ بأشياء وموضوعات ذات دلالة خاصة تميز كل موضوع منها عن الآخر.

ثانياً: وجود الذات التي تدرك، فمهما حاولنا أن نستعيض عن الذات بآلات وأجهزة حتى ما هو الكتروني منها فإن عملية الإدراك لا يمكن أن تحدث»[1].

إن الإدراك في القرآن الكريم يأتي على معاني كثيرة وأنه في اللغة كذلك، وأنه في الموضوعات المحسوسة أكثر منها في الموضوعات المعقولة، ولا أجد شيئاً جديداً فيما قرره علماء النفس في الأصول الفكرية لهذا الموضوع، ويبقى السبق للقرآن الكريم حيث بين حيثيات الإدراك بنوعيه منذ أربعة عشر قرناً.

إن الشروط التي ذكرها الدكتور/ أحمد زكي متوفرة في جميع الآيات التي وردت فيها مادة الفعل (درك) في مثل قوله تعالى:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَى إِذَا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2].

ففرعون في الآية الكريمة هو الذات المدركة، والعالم الخارجي، هو البحر وقد انطبق ماؤه بعد انفراقه لبني اسرائيل، فقد أوحى الله تعالى إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر فانفرق، كما صار قاع البحر يبساً ليمر موسى ببني إسرائيل، فأنجاهم الله سبحانه من فرعون الذي تبعهم بجنده عقيب خروجهم من مصر مع نبي الله موسى

---

(١)علم النفس التربوي (صـ ٤٦٧) د/ أحمد زكي صالح ـ النهضة العربية.
(٢) سورة يونس آية: (٩٠).

عليه السلام، ثم انطبق ماء البحر على فرعون وجنده فلما أدرك أن لا سبيل إلى النجاة من الغرق أعلن إيمانه برب موسى عليه السلام فلم يقبل الله تعالى منه ذلك.

وقد تحدث د/ فؤاد أبو حطب عن أهمية الإدراك البصري المكاني، وأنه كان موضوع دراسات كثيرة قام بها علماء كثيرون أمثال ثرستون وهاريل وفرتشتر وغيرهم وما قاله في الإدراك البصري «... ومن الوجهة السيكولوجية يمكن القول أن عامل التصور البصري يدل على مفهوم له تاريخ طويل في دراسة الإستعدادات، وهو القدرة على تخيل الحركة، أو الإحلال المكاني للشكل أو بعض أجزائه، وأكثر مقاييسه شيوعاً اختبار الحركات المكانية، وفيه يعطى للمفحوص رسماً لآلة معينة، وعلى المفحوص أن يحدد إتجاه الحركة الناتجة عن أحد أجزائها، واختبار الأوراق المثقوبة، ولوحات الأشكال الورقية.

وهذا العالم يسميه جيلفورد معرفة تحويلات الأشكال البصرية»[1].

لقد أكد القرآن الكريم أهمية الإدراك البصري واعتبره أساساً هاماً لتوصيل المعلومات إلى العقل، لإدراك العلاقات بين الأشياء المبصرة، وتمييزها وتحديد الفروق بينها وبين اتجاه الحركة لكل كائن مبصر بالعين المجردة أو وسائل الكشف الأخرى، كأساس يعينه على تحديد السرعة للمجموعة الشمسية وغيرها من الكواكب والنجوم، ومحاولة التعرف على مدار كل كوكب على حدة ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[2].

«والشمس تدور حول نفسها، وكان المظنون أنها ثابتة في

---

(١) القدرات العقلية (صـ ٢٧٦) د/ فؤاد أبو حطب مكتبة الأنجلو المصرية.
(٢) سورة يس آية: (٣٨).

موضعها الـذي تدور فيـه حول نفسهـا، ولكن عرف أخيـراً أنها ليست مستقرة في مكانها، إنما هي تجري فعلاً. تجري في اتجاه واحـد في الفضاء الكوني الهـائل بسـرعة حسبهـا الفلكيون بـاثني عشر ميـلاً في الثانية والله ـ ربها الخبير بها وبجريانها وبمصيرها ـ يقول: إنها تجـري لمستقر لها. هذا المستقر الـذي ستنتهي إليه لا يعلمـه إلا هو سبحـانه وتعالى ولا يعلم موعده سواه»[1].

لقد كشف القرآن الكـريم عن أخطاء إدراكيـة كثيرة شـاعت بين الناس أمداً طويلاً من الدهر، حتى بعد نزول القرآن الكريم بمـا يزيـد عن ثلاثة عشر قرنـاً، فماذا على علمـاء النفس المسلمين لو أنهم بنـوا أصـول فكـرهم على أسـاس من هـدى القـرآن الكـريم إذن لأفـادوا الإنسـانية بعلوم كثيـرة في طبيعة النفس البشـرية وميـولها واتجـاهـاتهـا وسبيـل اصلاحهـا والـطرق المثلى لعـلاجهـا، والله يهـدي إلى سواء السبيل.

التذكر عند علماء النفس:

لقد تناول علماء النفس التذكر بالدراسة والبحث باعتباره إحـدى العمليات العقلية التي تتأثر بالنمو العام في مرحلة المراهقة، وقـد كان المتعارف عليه قديماً أن مرحلة الطفولة تتميز بسرعة التذكـر وأنه يـأخذ في الإنحـدار قبيل المـراهقة، لكن الـدراسات الحـديثة عكست هـذا المفهوم الذي ساد لفترة طويلة[2].

---

(١) في ظلال القرآن الكريم (جـ ٥ صـ ٢٩٦٥).

(٢) «وقد أثبتت الأبحاث الحديثة خطأ هذه الفكرة، وذلك أن التذكر أعقـد من أن يشمله تعميم كهذا، فالتذكر ارتباط بين الماضي والحاضر ولذا يقع في مستوى العلميات الإرتباطية. ولو تتبعنا تذكر الفرد خلال مراحل نموه وتـطوره لوجـدنا أن قدرة الطفـل على التذكـر تزداد مـع العمر، ومعنى ذلـك أن قدرة المـراهق =

تؤكد جميع الدراسات النفسية الحديثة نمو عملية التذكر في مرحلة المراهقة، كما تنمو قدرة المراهق على الإستدعاء، وتتميز قدرته على الحفظ بصورة أفضل عن ذي قبل.

«تؤكد الأبحاث خطأ الرأي القائل بأن الطفولة هي المرحلة الذهبية للتذكر، ذلك أن التذكر أعقد من أن يشمله تعميم كهذا التعميم، فالتذكر المباشر يختلف عن التذكر غير المباشر والتذكر الآلي يختلف عن التذكر المعنوي، وهكذا يستطرد بنا التحليل إلى تبيان المظاهر المختلفة للتذكر وإلى تأكيد نمو كل مظهر من مظاهره، وإلى تعليل نتائج بعض الأبحاث الحديثة في القدرات العقلية التي عجزت عن الكشف عن قدرة واحدة تهيمن على جميع هذه المظاهر، وإلى تفسير فشل نظرية الملكات التي عالجت التذكر كملكة عقلية تتدرب عندما ندرب إحدى مظاهرها.

هذا ويستطرد النمو بالتذكر المباشر حتى يبلغ ذروته في السنة الخامسة عشرة لميلاد الفرد، ثم يضعف وينحدر في سرعته وقوته ومداه، ويظل التذكر المعنوي في نموه طوال المراهقة والرشد، ويتأثر تذكر الفرد للموضوعات المختلفة بدرجة ميله نحوها أو عزوفه عنها واستمتاعه بها أو بغضه لها، وبانفعالاته وخبراته المختلفة، ولهذا تقل أهمية التذكر المباشر للأرقام والألفاظ في قياسنا للذكاء كلما زاد عمر

= على الحفظ تفوق قدرة الطفل وذلك من حيث استيعاب أكبر كمية ممكنة من المعلومات والإحتفاظ بها لمدة أطول... وتنمو مع عملية التذكر مقدرة المراهق على الإستدعاء والتعرف، وينمو التذكر المباشر حتى يبلغ ذروته في سن الخامسة عشرة ثم يضعف وينحدر في سرعته وقوته ومداه ويظل التذكر المعنوي في نموه طوال المراهقة والرشد.. الخ) خفايا المراهقة (صـ ٥٥) تأليف معروف مصطفى زريق ـ المطبعة العمومية بدمشق.

الفرد»[1].

أكدت الدراسات السابقة أن التذكر ينمو في مرحلة المراهقة نمواً مطرداً لكنها فرقت بين نوعي التذكر، فقررت أن التذكر غير المباشر يستمر في طريقه النمائي دون توقف في الوقت الذي يأخذ التذكر المباشر في الضعف منذ السنة الخامسة عشرة لميلاد المراهق كما ينحدر في سرعته ومداه، لكني أعتقد أن دراسة هذا الجانب وفق فرضيات جديدة وتحت ظروف مختلفة للدراسات السابقة، قد يثبت بواسطتها أن التذكر المباشر وغير المباشر يسيران في خط نمائي واحد، إذاً لا غنى للفرد ـ مراهقاً ـ وشاباً ورجلاً عن الإستعانة بكل منها في بعض شؤون حياته، فإنهما يشتركان في بعض الخصائص التي تميز التذكر عن غيره من العمليات العقلية الأخرى[2].

كما أكدت بعض الدراسات النفسية أن التذكر وظيفة هامة من وظائف العقل تتم عن طريقها إدراك الخبرات والأحداث الماضية، وهي عملية هامة في تكيف المراهق مع أحداث الحياة الحاضرة والمستقبلة.

«إن التذكر وظيفة للعقل من حيث هو وحدة، وهي تنصب على

---

(١) الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة (صـ ٢٨٦) د/ فؤاد البهي السيد الطبعة الثالثة ـ دار الفكر العربي.

(٢) «حيث نجد أن بدلاً من التذكر الآلي (السرد للموضوع دون فهم لعناصره ومحتواه) لدى التلميذ في المرحلة الإبتدائية، نجد المراهق (تلميذ المرحلة الثانوية) يبني تذكره على أسس أخرى هي الفهم والميل، أي القدرة على إدراك العلاقات بين عناصر الموضوع، والقدرة على استنتاج العلاقات الجديدة بين هذه العناصر، أي مقدرة الفرد على فهم الموضوع وربطه بغيره من الموضوعات التي سبق أن مرت بخبرته» النمو من الطفولة إلى المراهقة (صـ ٤٧١) محمد جميل ـ فاروق عبد السلام.

إدراك الخبرات الماضية، من حيث أن هذه الخبرات والأحداث الماضية تكون جزءاً هاماً من تاريخ حياة كل فرد منا، والوظيفة الرئيسية للتذكر هي استرجاع الموقف أو الموضوع في تحديده في خبرتنا الخاصة ـ الشخصية ـ فأنا أتذكر كيف أمضيت الصيف الماضي، ومن هم الناس الذين تركوا لدي أثراً حسناً إذ ذاك، كما أتذكر يوم وفاة صديق عزيز لدي.

والعلم يعتمد على التذكر إلى حد كبير، فتذكر الإنسان لطريقة التغلب على مشكلة معينة، وسرعته في إدراك موقفه السابق إزاء هذه المشكلة، يساعد على التغلب على نفس الموقف، أو على موقف آخر يشابهه، بسهولة كبيرة وبالتالي فإنه يكون قد تعلم هذا الأمر، وبعد مرة أو مرات لا يجد الإنسان ثمة مشكلة إزاء هذا الموقف»[1].

أن التذكر في القرآن الكريم لا يقف عند الحد الذي حده به علماء النفس بل تعداه ليشمل عمليات عقلية وسلوكية إزاء بعض المواقف التي تتطلب سلوكاً مناسباً لعملية التذكر ذلك أن التذكر في القرآن لا يقف عند حد استرجاع المواقف السابقة بل يتعداه إلى الحكم عليها بالحل أو التحريم والنتائج المترتبة عليه في الدنيا والآخرة، وإن كانت من قبيل الواجب أو المندوب أو المباح فإنه ينظر إلى سلوكه في الموقف السابق ويتفحصه ولا شك في أن نظر المواقف السابقة ما كان فيها من تجاوز أو تقصير، والتذكر بهذا المعنى يعينه على السلوك الذي يلتزمه من أراد إلى ربه سبيلا، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2].

---

(١) علم النفس التربوي (صـ ٤٩٧) د/ أحمد زكي صالح.

(٢) سورة الحشر آية: (١٨، ١٩).

«وبمناسبة ما تدعوهم إليه هذه الآية من يقظة وتذكر يحذرهم في الآية التالية من أن يكونوا كـ ﴿الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ وهي حالة عجيبة، ولكنها حقيقة، فالذي ينسى الله يهيم في الحياة بلا رابطة تشهده إلى أفق أعلى، وبلا هدف يرفعه عن السائمة التي ترعى، وفي هذا نسيان لإنسانيته. وهذه الحقيقة تضاف إليها أو تنشأ عنها حقيقة أخرى، وهي نسيان هذا المخلوق لنفسه فلا يدخر لها زاداً للحياة الطويلة الباقية، ولا ينظر فيما قدم لها في الغداة من رصيد»(١).

ولقد أشار القرآن الكريم إلى علية الإستدعاء في أبسط حالاته.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾(٢).

وجاء في القرآن الكريم إشارة إلى الإستدعاء في صورة مركبة اشتملت على عدة مجالات شارك فيها العقل والقلب.

في مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٣).

وإن نظرة سريعة في مضامين هذه الآية ترينا، أن عملية التذكر لا تقف عند حد الإستدعاء المجرد، فهو استدعاء مركب إلى حد كبير، فهؤلاء القوم بعد أن زلّت أقدامهم إلى فعل محرم، ذكروا الله سبحانه، وهذا الذكر لا يقف عند حد الذكر باللسان إنما يتعداه إلى

---

(١) في ظلال القرآن (جـ ٦ صـ ٣٥٣١). (٢) سورة البقرة آية: (٢٠٠).

(٣) سورة آل عمران آية: (١٣٥).

عمل القلب، حيث يستحضر القلب عظمة الله وعزته وجلاله وعظيم قدرته على أخذ الظالم أخذ عزيز مقتدر، ثم استحضروا كذلك رحمة الله وقد وسعت كل شيء، كما استحضروا أسباب قبول التوبة، وكل نوع من مجالات الإستدعاء التي ذكرتها ـ غير ما غاب عني ـ تنم عن علم سابق بالشرع حلاله وحرامه ومباحه، وقد سارعوا باستدعائه لمناسبته للظرف الذي أحاط بهم، وأعتقد أن هذا المستوى من التذكر يشتمل على نوعي التذكر، فهو مباشر من ناحية وغير مباشر من ناحية أخرى، فهو مباشر لأنه لم يستغرق وقتاً، وغير مباشر لأنه لم يخل من عمل العقل تدبراً وتفكراً، ولعل في ذلك ما يشير إلى استمرار نمو التذكر بنوعيه.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ إِتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[1].

وفي هذه الآية لا يقف التذكر عند حد ما استحضروه في الآية السابقة، ذلك أن مس الشيطان يغري بالفحشاء والمنكر، ويعمى القلوب ويطبع عليها فلا تكاد تعي أو تفقه شيئاً، كما يطمس البصيرة فيحجبهاعن التجاوب مع الوجود كله المتجه إلى ربه، ويورثها الغفلة، فكل هذه الغشاوات تنزاح مهما كانت كثافتها بمجرد تذكر عظمة الباري سبحانه وتعالى، فتظهر على النفس مراقبة الله عز وجل وخشية غضبه ورجاء رحمته، فيبصرون صراط الله المستقيم فيلزمونه ولا يحيدون عنه، يدل على ذلك ختام الآية ﴿فإذا هم مبصرون﴾.

والتذكر بالمستويات السابقة لم يهتم بها علماء النفس ولم يتعرضوا لها في أبحاثهم وهي ذات اتصال بعملية التذكر المجرد، وذات اتصال وثيق بصحة الفرد النفسية والعقلية، وعلماء النفس

---

(١) سورة الأعراف آية: (٢٠١).

يعلنون أن دراساتهم تهدف إلى تعريف الإنسان بنفسه وتحقيق تكيفه مع بيئته الإجتماعية وتحقيق صحته النفسية والعقلية، وهل يمكن تحقيق هذه الأمور مع بعد غالبية هذه الدراسات عن هدى القرآن الكريم.

ألا أن البعد عن هدى القرآن الكريم والإعراض عنه لا ينشأ عنه إلا الإضطراب والشقاء في الحياة الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾[1].

ألا أنه لا أحد أظلم لنفسه ممن ذكِّر بآيات ربه فأعرض عنها واستكبر، تناسب ذلك أن يطبع الله على قلبه بغشاء كثيف يحول دون الفقه والفهم والوعي، وهي أسس هامة في عملية التذكر، وليس هذا فحسب بل يتعداه إلى الآذان وهي آلة السمع، وهي إحدى أدوات التذكر فتُعطل عن وظيفتها كأن بها صمم.

---

(١) سورة الكهف آية: (٥٧).